

## الباب الثالث والثلاثون: في الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد

أعلم أن الجود بذلك المال، وأنفعه ما صرف في وجه استحقاقه، وقد ندب الله تعالى إليه في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾<sup>(١)</sup> قيل: إن الجود، والسخاء، والإيثار بمعنى واحد. وقيل: مَنْ أعطى البعض وأمسك البعض، فهو صاحبُ سخاء، وَمَنْ بذل الأكثر فهو صاحب جود، وَمَنْ أثر غيره بالحاضر، وبقي هو في مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار. وأصلُ السخاء هو السماحة، وقد يكون المعطي بخيلاً إذا صعب عليه البذل، والممسك سخياً، إذا كان لا يستصعب العطاء.

فمن الإيثار ما حكى عن حذيفة العدوي أنه قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلى، ومعني شيء من الماء، وأنا أقول إن كان به رمق<sup>(٢)</sup> سقيته، فإذا أنا به بين القتلى. فقلت له: أسقيك. فأشار إليّ أن نعم. فسمع برجل يقول آه، فأشار إليّ ابن عمي أن انطلق إليه. فجتته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.

ومن عجائب ما ذكر في الإيثار: ما حكاه أبو محمد الأزدي قال: لما احترق المسجد بمرور ظن المسلمون أن النصراني أحرقوه فأحرقوا خاناتهم. فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات، وكتب رقاعاً فيها القطع، والجلد، والقتل. ونثرها عليهم فمن وقع عليه رقعة فعل به ما فيها. ف وقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال: والله ما كنت أبالي لولا أم لي. وكان بجنبه بعض الفتيان فقال له: في رقعتي الجلد، وليس لي أم، فخذ أنت رقعتي وأعطني رقعتك ففعل. فقتل ذلك الفتى وتخلص هذا الرجل. وقيل لقيس بن سعد: هل رأيت قط أسخى منك؟ قال: نعم نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له: إنه نزل بنا ضيفان، فجاء بناقة فنحراها. وقال: شأنكم. فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحراها وقال: شأنكم. فقلنا: ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا القليل. فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت. فبقينا عنده أياماً، والسماء تمطر، وهو يفعل كذلك فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته. وقلنا للمرأة اعتذري لنا إليه ومضيئنا. فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا. قفوا أيها الركب اللثام، أعطيتمونا ثمن قرانا. ثم إنه لحقنا وقال: خذوها وإلا طعنتكم برمحي هذا. فأخذناها وانصرفنا.

وقال بعض الحكماء: أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام، وسخاؤها بما يملك على الخاص والعام. وجميع خصال الخير من فروعه. وقال رسول الله ﷺ: «تجاوزوا عن ذنب السخي، فإن الله أخذ

(١) سورة: آل عمران، الآية: ٩٢.

(٢) رمق: بقية من روح.

بيده كلما عثر، وفتح له كلما افتقر». وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا. وعنه ﷺ أنه قال: «السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، ولجأه سخي أحب إلى الله من عابد بخيل». وقال بعض السلف: منع الموجود سوء ظن بالمعبود وتلا قوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾<sup>(١)</sup> وقال الفضيل: ما كانوا يعدون القرض معروفاً. وقال أكثم بن صيفي: صاحب المعروف لا يقع، وإن وقع وجد له متكأ. وقيل للحسن بن سهل: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير فقلب اللفظ، واستوفى المعنى. ووجد مكتوباً على حجر: انتهز الفرص عند إمكانها، ولا تحمل نفسك همًا ما لم يأتك، واعلم أن تقتيرك<sup>(٢)</sup> على نفسك توفير لخزانة غيرك، فكم من جامع لبعول حليلته. وقال علي رضي الله تعالى عنه: ما جمعت من المال فوق قوتك، فإنما أنت فيه خازن لغيرك.

وقال النعمان بن المنذر يوماً لجلسائه: من أفضل الناس عيشاً وأنعمهم بالاً، وأكرمهم طباعاً، وأجلهم في النفوس قدراً؟ فسكت القوم. فقام فتى فقال: أبيت اللعن، أفضل الناس من عاش الناس في فضله. فقال: صدقت. وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة، لأنه إن كان كريماً أصون عرضه، أو لثيماً أصون عنه عرضي. وكان مورك العجلي يتلطف في إدخال السرور والرفق على إخوانه فيضع عند أحدهم البدره ويقول له: أمسكها حتى أعود إليك، ثم يرسل يقول له: أنت منها في حل. وقال الحسن رضي الله عنه: باع طلحة بن عثمان رضي الله تعالى عنه أرضاً بسبعمئة ألف درهم، فلما جاءه المال قال: إن رجلاً يبيت هذا عنده، لا يدري ما يطرقه، لغري<sup>(٣)</sup> بالله تعالى ثم قسمه في المسلمين. ولما دخل المنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها: يا أم المؤمنين أصابتنى فاقة. فقالت: ما عندي شيء، فلو كان عندي عشرة آلاف درهم لبعثت بها إليك. فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد، فأرسلت بها إليه في أثره فأخذها ودخل بها السوق فاشتري جارية بألف درهم فولدت له ثلاثة أولاد، فكانوا عباد المدينة، وهم محمد، وأبو بكر، وعمرو بنو المنكدر.

وأكرم العرب في الإسلام طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه، جاء إليه رجل فسأله برحم بينه وبينه. فقال: هذا حاططي بمكان كذا وكذا، وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم يراح إليّ بالمال العشية، فإن شئت فالمال، وإن شئت فالحائط. وقال زياد بن جرير: رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف في مجلس، وإنه ليخيظ أزراره بيده.

وذكر الإمام أبو علي القالي في كتاب الأمالي أن رجلاً جاء إلى معاوية رضي الله تعالى عنه، فقال له: سألتك بالرحم التي بيني وبينك إلا ما قضيت حاجتي. فقال له معاوية: أمن قريش أنت؟ قال: لا، قال: فأبي رحم بيني وبينك قال: رحم آدم عليه السلام. قال: رحم مجفوة والله لاكونن أول من وصلها. ثم قضى حاجته.

وروي أن الأشعث بن قيس أرسل إلى عدي بن حاتم يستعير منه قدوراً كانت لأبيه حاتم، فملأها مالاً وبعث بها إليه، وقال: إنا لا نعيدها فارغة، وكان الأستاذ أبو سهل الصعلوكي من الأجواد. ولم يناول أحداً شيئاً، وإنما كان

(١) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٩.

(٢) تقتير: الشح والتوفير.

(٣) الغري: قليل الثمة، مفتر بشكل فاسد.

يطرحه في الأرض، فيتناوله الآخذ من الأرض. وكان يقول الدنيا أقل خطراً من أن ترى من أجلها يد فوق يد أخرى، وقد قال النبي ﷺ: «اليد العليا، خير من اليد السفلى». وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهم عن الكرم، فقال: هو التبرع بالمعروف، قبل السؤال، والرأفة بالسائل مع البذل. وقدم رجل من قريش من سفر فمر على رجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر، وأضرَّ به المرض. فقال له: يا هذا أعنا على الدهر. فقال لغلّامه: ما بقي معك من النفقة فدفعه إليه. فصب في حجره أربعة آلاف درهم فهُمْ ليقوم فلم يقدر من الضعف فبكى، فقال له الرجل: ما يبكيك لعلك استقلت ما دفعناه إليك، فقال: لا والله ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني. وقال بعضهم: قصد رجل إلى صديق له فدلَّق عليه الباب فخرج إليه وسأله عن حاجته. فقال: علي دين كذا وكذا. فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه، ثم دخل الدار باكياً، فقالت له زوجته: هلاً تعللت حيث شقت عليك الإجابة، فقال: إنما أبكي لأنني لم أتفقد حاله، حتى احتاج إلى أن يسألني.

ويروى أن عبد الله بن أبي بكر، وكان من أجود الأجواد، عطش يوماً في طريق فاستسقى من منزل امرأة، فأخرجت له كوزاً، وقامت خلف الباب وقالت: تنحوا عن الباب، وليأخذ بعض غلمانكم، فإني امرأة عزب<sup>(١)</sup> مات زوجي منذ أيام فشرّب عبد الله الماء، وقال: يا غلام احمل إليها عشرة آلاف درهم. فقالت: سبحان الله أتسخر بي؟ فقال: يا غلام احمل إليها عشرين ألفاً، فقالت: أسأل الله العافية، فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفاً، فما أسئت حتى كثر خطابها. وكان رضي الله تعالى عنه ينفق على أربعين داراً من جيرانه عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه وأربعين خلفه، ويبحث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد، ويعتق في كل عيد مائة مملوك رضي الله عنه. ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم فقيل له إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله ما لا يمنع عني الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي من كان لقيس عنده مال فهو منه في حل، فكسرت عتبة بابه بالعشي لكثرة العواد. وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود، وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود، وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم في كل سنة فيفرقها في الناس ولا يُرى إلا وعليه دين. وسَمَن رجل بهيمة، ثم خرج بها ليبيها فمر بعبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه. فقال: يا صاحب البهيمة أتبيها؟ قال: لا، ولكنها هي لك هبة، ثم تركها له وانصرف إلى بيته، فلم يلبث إلا يسيراً وإذا بالحمالي على بابه عشرين نفراً، عشرة منهم يحملون حنطة، وخمسة لحماً وكسوة، وأربعة يحملون فاكهة وتقللاً، وواحد يحمل مالا فأعطاه جميع ذلك واعتذر إليه رضي الله تعالى عنه. ولما مات معاوية رضي الله تعالى عنه وفد عبد الله بن جعفر على يزيد ابنه فقال: كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك، فقال: كان رحمه الله يعطيني ألف ألف، فقال يزيد: قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف. فقال: بأبي وأمي أنت. فقال: ولهذه ألف ألف. فقال: أما أني لا أقولها لأحد بعدك. فقيل ليزيد: أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد. فقال: والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة، ثم وكل به يزيد من صحبه وهو لا يعلم، لينظر ما يفعل، فلما وصل المدينة فرق جميع المال حتى احتاج بعد شهر إلى الدين. وخرج رضي الله تعالى عنه، هو والحسان وأبو دحية الأنصاري رضي الله تعالى عنهم، من مكة إلى المدينة، فأصابهم السماء بمطر، فلجؤوا إلى خباء أعرابي، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء، فذبح لهم الأعرابي

(١) عزب: بلا زوج، وهي لفظة للمذكر والمؤنث.

فأصابتهم السماء بمطر، فلجؤوا إلى خباء أعرابي، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء، فذبح لهم الأعرابي شاة، فلما ارتحلوا قال عبد الله للأعرابي: إن قدمت المدينة فسل عننا. فاحتاج الأعرابي بعد سنين. فقالت له امرأته: لو أتيت المدينة فلقيت أولئك الفتيان. فقال: قد نسيت أسماؤهم. فقالت: سل عن ابن الطيار. فأتى المدينة فلقي سيدنا الحسن رضي الله تعالى عنه فأمر له بمائة ناقة بفحولها ورعاتها. ثم أتى الحسين رضي الله تعالى عنه فقال: كفانا أبو محمد مؤونة الإبل. فأمر له بألف شاة، ثم أتى عبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه فقال: كفاني إخواني الإبل والشياه. فأمر له مائة ألف درهم، ثم أتى أبا دحية رضي الله تعالى عنه فقال: والله ما عندي مثل ما أعطوك، ولكن انتني بيبلك فأوقرها لك تمراً. فلم يزل اليسار في عقب الإعرابي من ذلك اليوم.

وقال الحسن والحسين يوماً لعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم: إنك قد أسرفت في بذل المال. فقال: بأبي أنتما، إن الله عز وجل عودني أن يتفضل عليّ، وعودته أن أتفضل على عباده. فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني المادة. وامتدحه نصيب فأمر له بخيل، وأساس ودنانير، ودرهم. فقال له رجل: مثل هذا الأسود تعطي له هذا لمال. فقال: إن كان أسود فإن ثنائه أبيض. ولقد استحق بما قال أكثر مما نال، وهل أعطيناه إلا ثياباً تبلى، ومالاً ينفى، وأعطانا مدحاً يروى، وثناء يبقى. وخرج عبد الله رضي الله تعالى عنه يوماً إلى ضيعة له فتزل على حائط به نخيل لقوم، وفيه غلام ثم رمى إليه بالثاني، والثالث فأكلهما، وعبد الله ينظر إليه. فقال: يا غلام، كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت. قال: فليم آترت هذا الكلب؟ قال: أرضنا ما هي بأرض كلاب، وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً، فكرهت أن أردّه. قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي<sup>(١)</sup> يومي هذا. فقال عبد الله بن جعفر: الألام على السخاء؟ وإن هذا لأسخى مني، فاشترى الحائط وما فيه من النخيل والآلات. واشترى الغلام، ثم أعتقه، ووهبه الحائط بما فيه من النخيل والآلات. فقال الغلام: إن كان ذلك لي، فهو في سبيل الله تعالى، فاستعظم عبد الله ذلك منه، فقال: يوجد هذا، وأبخل أنا، لا كان ذلك أبداً.

وكان عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما من الأجواد، أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه وقال: يا ابن عباس إن لي عندك يدأ، وقد احتجت إليها. فصعد فيه بصره فلم يعرفه. فقال: ما يدك؟ قال: رأيتك واقفاً بفناء زمزم وغلامك يمنح<sup>(٢)</sup> لك من مائها والشمس قد صهرتك فظللتك بفضل كساتي حتى شربت. فقال: أجل إني لأذكر ذلك، ثم قال لغلامه: ما عندك؟ قال مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم. فقال: ادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده. وقدم عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما على معاوية مرة فأهدى إليه من هدايا النوروز حلالاً كثيرة ومسكاً، وآنية من ذهب وفضة. ووجهها إليه مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه، نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها. فقال له: هل في نفسك منها شيء. قال: نعم. والله إن في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب بن يوسف عليهما الصلاة والسلام. فضحك عبد الله وقال: خذها فهي لك. قال: جعلت فداءك، أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيحقد عليّ. قال: فاختمها بخاتمك، وسلمها إلى الخازن، فإذا كان وقت خروجنا حملناها إليك ليلاً. فقال الحاجب: والله لهذه الحيلة في الكرم، أكثر من الكرم.

(١) أطوي: أجوع.

(٢) منح الماء: رفعه.

إذا عصفت، وأسخى من البحر إذا زخر. ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلته عنه، وضيع حاله، وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم، فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه، وقال: ويلك يا معاوية أصبحت لين المهادر رفيع العماد<sup>(١)</sup> والحسين يشكو ضيق الحال، وكثرة العيال. ثم قال لوكيله: احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من ذهب، وفضة، ودواب، وأخبره أنني شاطرته، فإن كفاه وإلا احمل إليه النصف الثاني. فلما أتاه الرسول قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ثقلت والله على ابن عمي، وما حسبت أنه يسمح لنا بهذا كله. رضوان الله عليهم أجمعين.

وجاء رجل من الأنصار إلى عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، فقال له: يا ابن عم محمد، إنه ولد لي في هذه الليلة مولود، وإني سميت به باسمك تبركاً منك، وإن أمه ماتت. فقال له: بارك الله لك في الهبة، وأجرك على المصيبة، ثم دعا بوكيله وقال له: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع لأبيه مائتي دينار ليتفقها على تربيتها، ثم قال للأنصاري: عد إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا وفي العيش ييسر، وفي المال قلة. فقال الأنصاري: جعلت فداك لو سبقت حاتماً يوماً ما ذكرته العرب. وقال أبو جهم بن حذيفة يوماً لمعاوية: أنت عندنا يا أمير المؤمنين، كما قال ابن عبد كلال:

يقيناً ما نخافُ وإن ظننا      به خيراً أراناه يقيناً  
نميلُ على جوانبه كأننا      إذا ملنا نميلُ على أيننا  
نقلبه لنخبرَ حالتيه      فنخبرَ منهما كرمنا وليننا

فأمر له بمائة ألف درهم، وأنشده عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما:

بلوتُ الناسَ قرناً بعد قرنٍ      فلم أرَ غيرَ ختالٍ<sup>(٢)</sup> وقال<sup>(٣)</sup>  
ولم أرَ في الخطوبِ أشدَّ وقعاً      وأمضى من معاداة الرجالِ  
وذقتُ مرارةَ الأشياءِ طرّاً<sup>(٤)</sup>      فما شيءٌ أمرٌ من السؤالِ

فأعطاه مائة ألف درهم. ودخل عليه الحسن يوماً وهو مضطجع على سريره، فسلم عليه، وأقعده عند رجله. وقال: ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؟ تزعم أنني لست للخلافة أهلاً، ولا لها موضعاً. فقال الحسن: أو عجباً مما قالت؟ قال: كل العجب. قال الحسن: وأعجب من هذا كله جلوسي عند رجلك. فاستحيا معاوية، واستوى جالساً. ثم قال: أقسمت عليك يا أبا محمد إلا ما أخبرتني كم عليك ديناً؟ قال: مائة ألف درهم فقال: يا غلام أعط أبا محمد ثلثمائة ألف درهم، مائة ألف يقضي بها دينه، ومائة ألف يفرقها على مواليه، ومائة ألف يستعين بها على نوائبه وسوغها إليه الساعة.

وكان معن بن زائدة من الأجواد، وكان عاملاً على العراق بالبصرة. قيل إنه أتى إليه بعض الشعراء فأقام بيباه مدة يريد للدخول عليه فلم يتهياً له ذلك. فقال يوماً لبعض الخدم. إذا دخل الأمير البستان فعرفني، فلما دخل أعلمه

(١) رفيع العماد: سيد مرفه.

(٢) ختال: مخادع.

(٣) وقال: كاره.

(٤) طرّاً: جميعاً.

بذلك. فكتب الشاعر بيتاً ونقشه على خشبة، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، وكان ممن جالساً على القناة فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فإذا فيها بيت مفرد:

أيا جوداً معني نأج معناً بحاجتي فليس إلى معني سواك شفيح

فقال: من الرجل صاحب هذه؟ فأني به إليه. فقال: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطة فلما كان في اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ونظر فيها، وقال عليّ بالرجل صاحب هذه. فأني به. فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت. فأمر له بعشر بدر فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان في اليوم الثالث أخرجها ونظر فيها وقال: عليّ بالرجل صاحب هذه فأني به إليه. فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت. فأمر له بعشر بدر فأخذها. وتفكر في نفسه، وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج من البلد بما معه، فلما كان في اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده. فقال معن: لقد ساء والله ظنه، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار وفيه يقول القائل<sup>(١)</sup>:

يقولون معن لا زكاة لماله إذا حال حول لم تجد في دياره  
تراه إذا ما جنته متهللاً تعود بسنط الكف حتى لو أنه  
فلو لم يكن في كفه غير نفسه  
وكيف يزكي المال من هو باذنه  
من المال، إلا ذكره وجمائله  
كانك تعطيه الذي أنت نائله  
أراد انقباضاً لم تُطعهُ أنامله  
لجأد بها فليئق الله سائله

ومن قول معن:

دعيني أنهب الأموال حتى أعف الأكرمين عن اللثام

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء، وله أخبار في الجود عجيبة. من ذلك ما حكاه عقيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط، أتته فقلت: أيها الأمير إن رأيت أن تأذن لي فأصحبك، قال: إذا قدمت واسط فأنتنا إن شاء الله تعالى. فسافر وأقمت. فقال لي بعض إخواني: اذهب إليه. فقلت: كان جوابه فيه ضعف. قالوا: أتريد من يزيد جواباً أكثر مما قال. قال: فسرت حتى قدمت عليه، فلما كان في الليل دعيت إلى السمر فتحدثت القوم حتى ذكروا الجواري. فالتفت إليّ يزيد وقال: إيه يا عقيل فقلت:

أفأص القوم فسي ذكر الجواري فأما الأعزبون فلم يقولوا

قال: إنك لن تبقى عزباً. فلما رجعت إلى منزلي، إذا أنا بخادم قد أتاني ومعه جارية وفرش بيت، وبدرة عشرة آلاف درهم، وفي الليلة الثانية كذلك. فمكثت عشرة ليال وأنا على هذه الحالة. فلما رأيت ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر فقلت: أيها الأمير قد والله أغنيت وأقنيت، فإن رأيت أن تأذن لي في الرجوع فأكتب عدوي، وأسر صديقي. فقال: إنما أخيرك بين خلتين، وإما أن تقيم فنوليك، أو ترحل فنغنيك. فقلت: أو لم تغتني أيها الأمير؟ قال: إنما هذا أثار المنزل، ومصلة القدم. فنالني من فضله ما لا أقدر على وصفه.

(١) زهير بن أبي سلمى.

وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال: حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقاً يحلق رأسه، فجاءوه بحلاق فحلق رأسه فأمر له بخمسة آلاف درهم. فتحير الحلاق ودهش، وقال: أخذ هذه الخمسة آلاف وأمضي إلى أم فلان، وأخبرها أنني قد استغنيت. فقال: أعطوه خمسة آلاف أخرى. فقال: امرأتي طالق إن حلقت رأس أحد بعدك. وقيل: إن الحجاج حسبه على خراج وجب عليه، مقدار مائة ألف ألف درهم، فجمعت له وهو في السجن، فجاءه الفرزدق يزوره، فقال للحاجب: استأذن لي عليه. فقال: إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه. فقال الفرزدق: إنما أتيت متوجعاً لما هو فيه، ولم آت ممتدحاً فأذن له، فلما أبصره قال:

أبَا خَالِدٍ ضَاقَتْ خِرَاسَانُ بَعْدَكُمْ      وَقَالَ ذُوو الْحَاجَاتِ أَيْنَ يَزِيدُ  
فَمَا قَطَرَتْ بِالشَّرْقِ بَعْدَكَ قَطْرَةٌ      وَلَا أَخْضَرَ بِالْمَرْوَيْنِ بَعْدَكَ عَوْدُ  
وَمَا لِسُرُورٍ بَعْدَ عَزِّكَ بِهِجَةٌ      وَمَا لِحَوَادٍ بَعْدَ جُودِكَ جُودُ

فقال يزيد للحاجب: ادفع إليه المائة ألف ألف درهم، التي جمعت لنا، ودع الحجاج ولحمي يفعل فيه ما يشاء. فقال الحاجب للفرزدق: هذا الذي خفت منه لئلا منعك من دخولك عليه، ثم دفعها إليه فأخذها وانصرف. ومر يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه بعجوز أعرابية فذبحت له عنزاً فقال لابته: ما معك من النفقة؟ قال: مائة دينار. قال: ادفعها إليها. فقال: هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك. قال: إن كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي. وقال مروان بن أبي الحبوب الشاعر: أمر لي بمائة وعشرين ألفاً، وخمسين ثوباً، ورواحل كثيرة. فقلت أبياتاً في شكره فلما بلغت قولتي:

فَأَمْسِكْ نَدَى كَفَيْتِكَ عَنِي وَلَا تَزِدْ      فَقَدْ خَفْتُ أَنْ أَطْغَى وَأَنْ أَتَجَبَّرَا

فقال: والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي، وأمر له بضياع بألف ألف. وقال أبو العيناء: تذاكروا السخاء فاتفقوا على آل المهلب في الدولة المروانية، وعلى البرامكة في الدول العباسية، ثم اتفقوا على أن أحمد بن أبي داود أسخى منهم جميعاً وأفضل. وسئل إسحاق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد فقال: أما الفضل فيرضيك فعله، وأما جعفر فيرضيك قوله، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد. وفي يحيى يقول القائل:

سَأَلْتُ النَّدَى هَلْ أَنْتَ حَرٌّ فَقَالَ لَا      وَلَكِنِّي عَبْدٌ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ  
فَقُلْتُ شَرَاءٌ قَالَ لَا بَلْ وَرَائَهُ      تَوَرَّائِي مِنَ الْوَالِدِ بَعْدَ الْوَالِدِ

وفي الفضل يقول القائل:

إِذَا نَزَلَ الْفَضْلُ بِنُ يَحْيَى بِلِدَةٍ      رَأَيْتُ بِهَا غَيْثَ السَّمَاحَةِ يَنْبُتُ  
فَلَيْسَ بِسَّأَلٍ<sup>(١)</sup> إِذَا سَبِلَ حَاجَةً      وَلَا بِمَكْبُ<sup>(٢)</sup> فِي تَرَى الْأَرْضِ يَنْكُتُ

وفي محمد يقول القائل:

سَأَلْتُ النَّدَى وَالْجُودَ مَا لِي أُرَاكَمَا      تَبَدَّلْتُمَا عَزّاً بِذَلِكَ مَوْجِدِ

(١) سَأَل: يتنحج ويسعل في غير راحة للغطاء.

(٢) مَكْبُ: مطرق يتلهى.

وما بال ركنُ المجدِ أمسى مهدمًا  
فقلتُ فهلا مُثِّمًا بعدَ موتِهِ  
فقالا أَقْمِنَا كي نُعَزَّى بِفَقْدِهِ  
وقد كَتَمَّا عَبْدِيهِ في كُلِّ مشهدٍ  
فقالا أَصْبِنَا بابنِ يحيى محمَّدٍ  
مسافةً يومٍ ثم تَلُوهُ في غدٍ

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه: من كانت له إليّ حاجة فليرفعها إليّ في كتاب لأصون وجهه عن المسألة. وجاءه رضي الله تعالى عنه أعرابي، فقال: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة، الحياء يمنعني أن أذكرها. فقال خطها في الأرض فكتب: إني فقير. فقال: يا قنبر، أكسبه، حلتي. فقال الأعرابي:

كسوتني حلة تبلى محاسنها  
إن نلت حسن الثنا قد نلت مكرمة  
فسوف أكسوك من حسن الثنا حلالا  
وليس تبغي بما قدمته بدلا  
كالغيث يُحيى نداء السهل والجبال  
كُلُّ امرئٍ سوف يُجزى بالذي فعلا  
لا تزهد الدهر في عرفٍ بدأت به

فقال يا قنبر: زده مائة دينار. فقال: يا أمير المؤمنين لو فرقتها في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم. فقال رضي الله تعالى عنه: صه يا قنبر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: اشكروا لمن أثنى عليكم، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه. ولعبد الله بن جدهان:

إني وإن لم يَنْلُ مالي مداخلتني  
لا أحبسُ المالَ إلا حيثُ أنفقُهُ  
وهأبُ ما ملكتُ كَفَي من المالِ  
ولا يغيّرني حالٌ إلى حالٍ

وقال بعض العرب لولده: يا بني لا تزهدن في معروف، فإن الدهر ذو صروف؛ فكم راغب كان مرغوباً إليه، وطالب كان مطلوباً ما لديه، وكن كما قال القائل:

وَعُدُّ من الرَحْمَنِ فضلاً ونعمةً  
ولا تمنعن ذا حاجةٍ جاء راغباً  
وعليك إذا ما جاء للخير طالِبُ  
فإنك لا تدري متى أنت راغبٌ  
وقال بعضهم:

أبيتُ خميصَ البطنِ<sup>(١)</sup> عريانَ طاوياً  
وأمنحه فرشي وأتشرش الثرى  
وأجعل ستر الليل من دونه لبي<sup>(٢)</sup>  
إذا ضمّني يوماً إلى صدره رمسي<sup>(٣)</sup>  
حذارِ أحاديثِ المحافلِ في غدٍ

وقال يحيى البرمكي: أعط الدنيا وهي مقبلة، فإن ذلك لا ينقصك منها شيئاً، وأعط منها وهي مدبرة فإن منعك لا يبقى عليك منها شيئاً. فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ويقول: لله دره ما أظبعه على الكرم وأعلمه بالدنيا. وقد أملى يحيى من نظمه فقال:

(١) خميص البطن: خاليه - جائعاً.

(٢) اللبس: الخفاء.

(٣) الرمس: اللحد - القبر.

لا تبخلنَّ بدنياً وهي مقبلَةٌ  
فليس ينقصُها التبذيرُ والسرفُ  
فإن تولَّتْ فأحرى أن تجودَ بها  
فليسَ تبقى ولكنْ شكرها خلفاً<sup>(١)</sup>

وقال يحيى لولده جعفر يا بني: ما دام قلمك يردد فأمطره معروفاً. وقال بعضهم:

لا تكثري في الجودِ لائمتي  
كفّي فلسْتُ بحاملٍ أبداً  
وإذا بخلتُ فاكثري لومي  
ما عشتُ همَّ غدٍ إلى يومي

وقال علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه: لا تستح من عطاء القليل فالحرمان أقل منه. وسئل إسحاق الموصلي عن المخلوع فقال: كان أمره كله عجباً، كان لا يبالي أين يقعد مع جلسائه، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر. كان عنده سليمان بن أبي جعفر يوماً فأراد الرجوع إلى أهله فقال له: سفر البر أحب إليك أم سفر البحر؟ قال: البحر ألين عليّ. فقال: أوقروا<sup>(٢)</sup> له زورقه ذهباً، وأمر له بألف درهم. وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان، موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك وقال: قد هجاني يا أمير المؤمنين. فاستحضره سليمان وقال: لا أم لك، أتتهجو سعيداً. قال: يا أمير المؤمنين أخبرك الخبر. عشت جارية مدنية وأتيت سعيداً فقلت: إني أحب هذه الجارية، وإن مولاتها أعطيت فيها مائتي دينار، وقد أتيتك فقال لي بورك فيك. فقال سليمان: ليس هذا موضع بورك بورك فيك. قال: فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد فذكرت له حالي فقال: يا جارية هاتي مطرفاً فأتته بمطرف خز فصرتُ لي في كل زاوية مائتي دينار فخرجت وأنا أقول:

أبا خالد أعني سعيد بن خالد  
ولكنني أعني ابن عائشة الذي  
عقيد الندى ما عاش يرضى به الندى  
دزوه دزوه إنكم قد رقدتمو  
أخا العرف لا أعني ابن بنت سعيد  
أبو أبويه خالد بن أسيد  
فإن مات لم يرض الندى بعقيد<sup>(٣)</sup>  
وما هو عن إحسانكم برقود

فقال سليمان: قل ما شئت. وكتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرماء رقعة فيها:

إذا تكهرت أن تعطي القليل ولم  
بثَّ النوال ولا تمنعك قلتُهُ  
تقديز على سعة لم يظهر الجودُ  
فكلُّ ما سدَّ فقراً فهو محمودُ

فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه، وفردة نعله. وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضاً بشمانين ألفاً. فقيل له: لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخراً. فقال: بل اجعله ذخراً لي واجعل الله ذخراً لولدي، وقسمه بين ذوي الحاجات. وكان ابن مالك القشيري من الأجواد. قيل إنه أنهب الناس ماله بمكافئ ثلاث مرات فعاتبه خالد فقال:

يا خال ذرني ومالي ما فعلتُ به  
وخُذ نصيبك منه إنني مودي<sup>(٤)</sup>

(١) خلف: أي يجعل لها خلفاً.

(٢) أوقروا: حملوه وأثقلوه.

(٣) بعقيد: من يعقد له الرأي والزعامة.

(٤) مودي: هالك.

فلن أطيعك إلا أن تخلصني      فانظُرْ بكيدِكَ هل تستطيعُ تخليدي  
الحمْدُ لا يُشترى إلا بمكرمةٍ      ولن أعيشَ بمالٍ غيرِ محمودٍ

وقال المهلب: عجبت لمن يشتري الممالك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بفعاله. ونزل بأبي البحتري وهب ابن وهب القرشي ضيفاً، فسارع عبيده إلى إنزاله وخدموه أحسن خدمة، وفعّلوا به كل جميل، فلما هم بالرحيل لم يقربه أحد منهم وتجنّبوه فأنكر ذلك عليهم. فقالوا: نحن إنما نعين النازل على الإقامة ولا نعينه على الرحيل. ووفدت ليلي الأخيلية على الحجاج فقالت فيه:

إذا وردَ الحجاجُ أرضاً مريضةً      تتبعُ أقصى داءها فشفاهما  
شفاها من الداءِ العضالِ<sup>(١)</sup> الذي بها      غلامٌ إذا هزَّ القنأةَ سفاها

فقال: لا تقولني غلام، ولكن قولني /همام/ يا غلام أعطها خمسمائة. فقال: أيها الأمير اجعلها نعماً، فجعلها إبلاً إنثاءً. وقال أبو الفياض الطبري:

والعزُّ ضيفٌ لا يراهُ بربروه      مَنْ لا يرى بذلَ التلادِ تلادا  
والجودُ أعلى كعبٍ كعبٍ قبلنا      فمضى جواداً يومَ مات جوادا

وقال آخر:

أيقنتُ أنّ من السماحِ شجاعةً      وعلمتُ أنّ من السماحِ جودا

وقال أحمد بن حمدون النديم: عملت أم المستعين بساطاً على صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب، وأعينهم يواقيت وجواهر، أنفقت عليه مائة ألف دينار وثلاثين ألف دينار، وسألته أن يقف عليه، وينظر إليه، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته. قال أحمد بن حمدون: فقال لي ولأترجة الهاشمي: اذهب فانظر إليه، وكان معنا الحاجب. فمضينا ورأيناه، فوالله مارأينا في الدنيا شيئاً أحسن منه، ولا شيئاً حسناً إلا وقد عمل فيه. فمددت أنا يدي إلى غزال أمير المؤمنين إنه قد سرق منه شيئاً، وغمزه على كمي، فأريته الغزال فقال: بحياتي عليكما ارجعوا فخذوا ما أحببتما. فمضينا فملأنا أكمامنا، وأقبينا، وأقبلنا نمشي كالحبالى. فلما رأنا ضحك، فقال بقية الجلساء: ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين، فقال: قوموا فخذوا ما شئتم، ثم قام فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك.

ونظر يزيد المهلبي سطلاً من ذهب مملوءاً مسكاً فأخذه بيده وخرج. فقال له المستعين: إلى أين؟ فقال: إلى الحمام يا أمير المؤمنين، فضحك من قوله، وأمر الفراشين والخدم أن يتهبوا الباقي فانتهبوه فوجهت إليه أمه تقول: سرّ الله أمير المؤمنين، لقد كنت أحب أن يراه أن يفرقه، فإنني أنفقت عليه مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار. فقال: يُحمل إليها مثل ذلك، حتى تعيد مثله. ففعلت ومضى حتى رآه وفعل به كفعله بالأول. ودخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يوماً فوافق فيه الفرزدق فقال: يا أبا فراس اختر عشراً من الإبل ففعل. فقال: ضم إليها مثلها فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة. فقال: هي لك. فقال:

(١) الداء العضال: الذي لا بُرّه منه.

يا طلح أنت أخو الندى وعقيدُهُ      إن الندى ما مات طلحةً ماتا  
 إن الندى ألقى إليك رحالهُ      فبحيثُ بِتُّ من المنازلِ باتا  
 وقدم زياد الأعجم على عبد الله بن الحشرج بنيسابور فأكرمه، وأنعم عليه، وبعث إليه بألف دينار. فقال:

إن السماحةَ والمروءةَ والندى      في قبةٍ ضُربَتْ على ابنِ الحشرجِ  
 فقال: زدني. فقال: كل شيء وثمنه. ووفد أبو عطاء السدي على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له فأنزله،  
 وأحسن إليه وقال: ما عندك يا أبا عطاء. فقال: وما عسى أن أقول وأنت أشعر العرب غير أنني قلت بيتين. قال: هات  
 ما قلت فقال:

يا طالبَ الجودِ أما كنتَ تطلبُهُ      فاطلُبْ على بابِهِ نصرَ بنِ سيارِ  
 الواهبِ الخيلَ تغدو في أعتتها      مع القيانِ وفيها ألفُ دينارِ

فأعطاه ألف دينار، ووصائف، وكساه كسوة جميلة، فقسم ذلك بين رفيقيه ولم يأخذ منه شيئاً، فبلغ ذلك نصرأ  
 فقال: يا له، قاتله الله من سيد ما أضخم قدره، ثم أمر له بمثله. وقال العتيبي أشرف عمرو بن هبيرة يوماً من قصره فإذا  
 هو بأعرابي يرقل<sup>(١)</sup> قلوصه، فقال عمرو لحاجبه: إن أرادني هذا الأعرابي فأوصله إليّ. فلما وصل الأعرابي سأله  
 الحاجب، فقال: أردت الأمير، فدخل به عليه فلما مثل بين يديه قال له: ما حاجتك؟ فأنشد الأعرابي يقول:

أصلحك الله قُلَّ ما بيدي      ولا أطيقُ العيالَ إذا كثروا  
 أناخَ دهري عليّ كلكله<sup>(٢)</sup>      فأرسلُوني إليك، وانتظروا

فأخذت عمر الأريحية فجعل يهتز في مجلسه، ثم قال: أرسلوك إليّ وانتظروا، إذن لا تجلس حتى ترجع  
 إليهم، ثم أمر له بألف دينار. وقيل: أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم فجرى القلم بخمسمائة ألف.  
 فراجع الخازن في ذلك فقال: انفذه ما بقي إلا نفاذه، وإن خروج المال أحب إليّ من الإعتذار فاستشرفه الخازن. فقال  
 إذا أراد الله بعبد خيراً صرف القلم عن مجرى إرادة كاتبه إلى إرادته. وأنا أردت شيئاً، وأراد الجواد الكريم أن يعطي  
 عبده عشرة أضعافه، فكانت إرادة الله الغالبة وأمره النافذ. ووقف أعرابي على ابن عامر فقال: يا قمر البصرة، وشمس  
 الحجاز، ويا ابن ذروة العرب، وابن بطحاء مكة، برّحت بي الحاجة، وأكدت بي<sup>(٣)</sup> الآمال إلا بفنائك فامنحني بقدر  
 الطاقة لا بقدر المجد، والشرف، والهمة. فأمر له بمائتي ألف. وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل:

أتركُ إن قلَّتْ دراہمُ خالدِ      زيارتَه إنني إذا لكِـمُ

فقال: أوقلَّتْ دراہمُ خالد! احمّلوا إليه مائة ألف درهم، فبعثها خالد بن يحيى إلى عمارة بن عقيل وقال: هذه  
 قطرة من سحابك. ولما عزل عبد الرحمن بن الضحّاك عن المدينة بكى ثم قال: والله ما بكائي جزءاً من العزل، ولا  
 أسفاً على الولاية، ولكن أخاف على هذه الوجوه أن يلي أمرها من لا يعرف لها حقاً. وأراد الرشيد أن يخرج إلى

(١) يرقل: يجذُّ بالسير عليها.

(٢) كلكله: صدره ويكنى عن مصائبه.

(٣) أكدت بي: أعوزتني.

بعض المتفرجات فقال يحيى بن خالد لرجاء بن عبد العزيز وكان على نفقاته: ما عند وكلائنا من الأموال؟ قال: سبعمائة ألف درهم، قال: فاقبضها إليك يا رجاء. فلما كان من الغد دخل عليه رجاء فقبل يده، وعنده منصور بن زياد، فلما خرج رجاء قال يحيى لمنصور: قد ظننت أن رجاء توهم أننا قد وهبنا المال له، وإنما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لحاجتنا إليه في وجهنا هذا. فقال منصور: أنا استخبر لك هذا، فقال يحيى: إذن يقول لك قل له يقبل يدي كما قبلت يده، فلا تقل له شيئاً فقد تركتها له. وقيل إن الرشيد وصل في يوم واحد بألف وثلاثمائة ألف وخمسين ألفاً. ووصل المنصور في يوم واحد لبني هاشم ووجوه قواده بعشرة آلاف ألف دينار على ما ذكر. وعن الأخفش الصغير قال: كان أسيد بن عتقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه قدراً، أكثرهم أدباً، وأفصحهم لساناً، وأثبتهم جناناً<sup>(١)</sup>، فطال عمره، ونكبه دهره، فخرج عشية يتنفل لأهله فمر به عميلة الفزاري فسلم عليه وقال: ما أشارك يا عم إلى ما أرى؟ فقال بخلٌ مثلكَ بماله، وِصُونٌ وجهي عن مسألة الناس. فقال: والله لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما أرى من حالك. فرجع ابن عتقاء إلى أهله فأخبرها بما قال له عميلة فقالت له: لقد غرك كلام غلام في جنح ليل. قال: فكأنما ألقمت فاه حجراً، وبات متمللاً بين رجاء ويأس، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل، وصهيل الخيل تحت الأموال، فقال: ما هذا؟ قالوا عميلة قد قسم ماله شطرين وبعث إليك بشطره. فأنشأ يقول:

رَأَيْتِي عَلَى مَا بِي عَمِيلَةٌ فَاشْتَكَيْتِي	إلى ماله حالي فواسى وما هَجَزَ
وَلَمَّا رَأَى الْمَجْدَ اسْتَعِيرَتْ ثِيَابَهُ	تَرَدَّتْ رِدَاءً سَابِغَ الذَّيْلِ وَأَتَزَزَ
غَلَامٌ جَاءَهُ اللَّهُ بِالْحَسَنِ يَافِعًا	لَهُ سِيمِيَاءٌ <sup>(٢)</sup> لَا تَشْقَى عَلَى الْبَصَرِ
كَأَنَّ الثَّرِيَاءَ <sup>(٣)</sup> عَلَقَتْ فِي جَيْبِنِهِ	وَفِي أَنْفِهِ الشُّغْرَى وَفِي جَيْبِهِ الْقَمَرِ

وكان عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي من الأجواد. قيل: إنه كان لرجل جارية يهاوها فاحتاج إلى بيعها فابتاعها منه ابن معمر بمال جزيل، فلما قبض ثمنها أنشأت تقول:

هَنِيئاً لَكَ الْمَالُ الَّذِي قَدْ قَبَضْتَهُ	وَلَمْ يَبْقَ فِي كَفِي غَيْرُ التَّحْشُرِ
أَبْوَةٌ بِحَزْنٍ مِنْ فِرَاقِكَ مَوْجَعٌ	أَنَا جِيءَ بِهِ صَدْرًا طَوِيلَ التَّفَكُّرِ

فأجابها بقوله:

وَلَوْلَا قَعُودُ الدَّهْرِ بِي عَنْكَ لَمْ يَكُنْ	يَفْرُقُنَا شَيْءٌ سِوَى الْمَوْتِ فَاعْذُرِي
عَلَيْكَ سَلَامٌ لَا زِيَارَةَ بَيْنِنَا	وَلَا وَصَلَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ابْنُ مَعْمَرِ

فقال ابن معمر: قد شئت، وقد وهبتك الجارية وثمانها فخذها وانصرف. ووفد أبو الشمقمق إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله فوجده في دار الخراج يطالب فدخل عليه يتوجع له فلما رآه محمد قال:

وَلَقَدْ قَدِمْتُ عَلَى رِجَالِ طَالِمَا	قَدِمَ الرِّجَالُ عَلَيْهِمْ فَمَوَّلُوا
--	--

(١) جناناً: القلب.

(٢) سيمياء: علامة.

(٣) الثريا: مجموعات نجمية (من النجوم).

أخنى<sup>(١)</sup> الزمانُ عليهم فكأنما كانوا بأرضٍ أقرت فتحوّلوا

فقال أبو الشمقمق:

الجودُ أفلسَهُم وأذهبَ مالَهُم فاليومَ إن رأوا السّاحةَ يبخلوا

قال: فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما إليه. فكتب بذلك مستوفي الخراج إلى الخليفة. فوقع إلى عامله بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام في تلك السنة، وإسقاط ما عليه من البقايا، وأمر له بمائة ألف درهم معونة له على مروءته.

وقال أبو العيناء: حصلت لي ضيقة شديدة فكتمتها عن أصدقائي فدخلت يوماً على يحيى بن أكثم القاضي فقال: إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم، وأخذ القصص فهل لك في الحضور. قلت: نعم فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه، وأجلسني، ثم قال: يا أبا العيناء بالإلفة والمحبة، ما الذي جاء بك في هذه الساعة فأشدته:

لقد رجوتك دونَ الناسِ كلهم وللرجاءِ حقوقٌ كلها تجبُ  
إن لم يكنْ لي أسبابٌ أعيشُ بها فقي العلاءِ لك أخلاقٌ هي السببُ

فقال: يا سلامة، انظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين. فقال: بقية من المال. قال: فادفع له منها مائة ألف درهم، وابعث له بمثلها في كل شهر. فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرّحت أجنافه فدخل عليه بعض أولاده فقال: يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء فأنشأ أبو العيناء يقول:

شيثان لو بكتِ الدماءُ عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهابِ  
لم يبلغا المعشَرَ من حقيهما ففقدُ الشبابِ وفرقةُ الأحبابِ

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة، وكان راتبه منها في الشهر ألف دينار، سوى ما يطراً عليه من نذر أو صلة، وسوى ما يطبخ في دار الصدقة. وكان الموكل بصدقته سليم الخادم، فقال له سليم يوماً: أيها الأمير إنني أطوف القبائل، وأدق الأبواب لصدقاتك، وإن اليد تمتد إليّ، وفيها الحناء وربما كان فيها الخاتم الذهب، والسوار الذهب، فأعطي أم أرد. قال: فأطرق طويلاً ثم قال: كل يد امتدت إليك فلا تردّها. وقال سلمة بن عياش في جعفر بن سليمان:

وما شمّ أنفي ريحَ كفِّ شمتها من الناسِ إلا ريحُ كفِّك أطيّبُ

فأمر له بألف دينار، ومائة مثقال مسك، ومائة مثقال عنبر. وكان عبد العزيز بن عبد الله جواداً مضيافاً، فتغدى عنده يوماً أعرابي، فلما كان من الغد مر على باب فرأى الناس في الدخول على هيتهم الأمس. فقال: أو كلّ يومٍ يطعم الأمير الناس؟ قالوا: نعم. فأنشأ يقول:

كلّ يومٍ كأنّه عيدٌ أضحى عندَ عبدِ العزيزِ أو عيدُ فطيرِ

(١) أخنى عليه الزمان: طال.

وله ألف جفنة<sup>(١)</sup> مترعاتٍ كلُّ قدرٍ يمدها ألفُ قدرٍ

وتعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص فلما خرجوا بقي فتى من الشام قاعداً فقال له سعيد: ألك حاجة؟ وأطفاً الشمعة كراهة أن يخجل الفتى. فذكر أن أباه مات، وخلف ديناً، وعيالاً، وسأله أن يكتب له كتاباً إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض إصلاح حاله فدفع له عشرة آلاف دينار. وقال له: لا أدعك تقاسي الذل على أبوابهم. ودخل رجل على علي بن سليمان الوزير فقال له: سألتك بالله العظيم، ونبيه الكريم إلا ما أجرتني من خصمي. فقال: ومن خصمك حتى أجريك منه؟ فقال: الفقر. فأطرق الوزير ساعة، وقال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم فأخذها وانصرف. فبينما هو في الطريق إذا أمر الوزير برده إليه، فلما رجع قال له: سألتك بالله العظيم ونبيه الكريم متى أتاك خصمك معتفاً فارجع إلينا متظلماً. وقال الأعمش: كانت عندي شاة فمرضت، وفقدت الصبيان لبنها، فكان خيشمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي ويسألني هل استوتف علفها، وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها، وكان تحتي لبد أجلس عليه فكان إذا خرج يقول: خذ ما تحت اللبد حتى وصل إلي من علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ<sup>(٢)</sup>.

وحكى أبو قدامة القشيري قال: كنا مع يزيد بن يزيد يوماً فسمع صائحاً يقول: يا يزيد بن يزيد. فطلبه فأتى به إليه، فقال: ما حملك على هذا الصياح؟ قال: فقدت دابتي، ونفدت نفقتي، وسمعت قول الشاعر:

إذا قيلَ مَنْ للجودِ والمجدِ والندى  
فنادِ بصوتِ يا يزيدُ بنُ يزيدِ

فأمر له بفرس أبلق كان معجياً به، وبمائة دينار، وخلعة سنية، فأخذها وانصرف.

وحكى أن قوماً من العرب جاؤوا إلى قبر بعض أسخياتهم يزورونه فباتوا عند قبره، فرأى رجل منهم صاحب القبر في المنام وهو يقول له: هل لك أن تبعيني بعيرك بنجيب<sup>(٣)</sup>؟ وكان الميت قد خلف نجيباً، وكان للرائي بعير سمين، فقال: نعم. وباعه في النوم بعيره بنجيبه. فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى بعيره فنحره في النوم، فانتبه الرائي من نومه فوجد الدم يسبح من نحر بعيره فقام وأتم نحره، وقطع لحمه وطبخوه، وأكلوا ثم رحلوا. وساروا. فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق سائرون استقبلهم ركب فتقدم منهم شاب فنادى: هل فيكم فلان بن فلان؟ فقال صاحب البعير: نعم ها أنا ذا فلان بن فلان. فقال: هل بعث من فلان الميت شيئاً؟ قال: نعم بعته بعيري بنجيبه في النوم، فقال هذا نجيبه فخذ، وأنا ولده وقد رأيته في النوم وهو يقول: أن كنت ابني فادفع نجيبه إلى فلان فانظر إلى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته.

وروي عن الهيثم بن عدي أنه قال: تمارى<sup>(٤)</sup> ثلاثة نفر في الأجواد. فقال رجل: أسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر. فقال الآخر: أسخى الناس قيس بن سعيد بن عبادة. فقال الآخر: بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسي. فتنازعوا بفناء الكعبة. فقال لهم رجل: لقد أفرطتم في الكلام فليمض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى

(١) جفنة: وعاء يسكب فيه الطعام.

(٢) تبرأ: تشفى.

(٣) بنجيبه: الإبل النقيس.

(٤) تمارى: تجادل.

نظر بما يعود، فنحکم على العيان. فقام صاحب بن جعفر فوافاه، وقد وضع رجله في ركاب راحلته يريد ضيعة له. فقال الرجل: يا ابن عم رسول الله ﷺ، ابن سبيل ومنقطع به. قال: فأخرج رجله، وقال: ضع رجلك واستو على الناقة وخذ ما في الحقيبة وكان فيها مطارف خز، وأربعة آلاف دينار. ومضى صاحب قيس فوجده نائماً فقالت له جارية لقيس: ما حاجتك؟ فقال: ابن سبيل، ومنقطع به، فقالت له الجارية: حاجتك أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار، ما في دار قيس اليوم غيرها، وامض إلى معاطن<sup>(١)</sup> الإبل فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها وعبداً، وامض لشأنك. قيل: إن قيساً لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت فاعتقها. ولو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت أن تفعله، فخلقُ خدم الرجل مقتبس من خلقه قال بعض الشعراء:

وإذا ما اختبَرْتَ وِدَّ صديقٍ      فاخْتَبِرْ وِدَّهَ مَنْ الغلمانِ

ومضى صاحب عرابة فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة. فقال: يا عرابة، ابن سبيل ومنقطع به، وكان معه عبدان فصفق بيده اليمنى على اليسرى. وقال: أواه أواه والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابة شيء، ولا تركت له الحقوق مالاً، ولكن خذ هذين العبدين. فقال الرجل والله ما كنت بالذي يسلبك عبدك. فقال: إن أخذتهما أو لا فهما حران لوجه الله تعالى، فإن شئت فخذ، وإن شئت فاعتق. فأخذ الرجل العبدين ومضى. ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد فحكوا لعرابة لأنه أعطى على جهده.

قيل: إن شاعراً قصد خالد بن يزيد فأنشده شعراً يقول فيه:

سألتُ الندى والجودَ حرَّانَ أتَمَّا      فقال يقيناً إننا لعميسدُ  
فقلتُ ومَنْ مولاكما فتطاولا      إليّ وقالا خالدٌ ويزيدُ

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم. وقل له إن زدتنا زدناك فأنشد يقول:

كريمٌ كريمُ الأمهات مهذبٌ      تُدْفِقُ يمناه الندى وشمائله  
هو البحرُ من أي الجهات أتته      فلجئته المعروفُ والجودُ ساحله  
جوادٌ بسيطٌ الكفِّ حتى لو أنه      دعاها لقبضٍ لم تُجِبْهُ أنامله

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم، وقال له: إن زدتنا زدناك فأنشد يقول:

تبرعتُ لي بالجود حتى نعشتني      وأعطيتني حتى حسبتك تلعبُ  
وأبيتُ ريشاً في الجناجِينِ بعدما      تساقطَ مني الريشُ أو كادَ يذهبُ  
فأنتُ الندى، وابنُ الندى، وأخو الندى      حليفُ الندى ما للندى عنك مذهبُ

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم. وقل له: إن زدتنا زدناك. فقال: حسب الأمير ما سمع، وحسبي ما أخذت وانصرف.

وأما الذين انتهى إليهم الجود في الجاهلية فهم: حاتم بن عبد الله الطائي، وهرم بن سنان، وخالد بن عبد الله،

وكعب بن أمامة الأيادي، وضرب المثل بحاتم وكعب، وحاتم أشهرهما. فأما كعب فجاد بنفسه، وآثر رفيقه بالماء في المفازة<sup>(١)</sup> ومات عطشاً، وليس له خير مشهور. وأما خالد بن عبيد الله فإنه جاء إليه بعض الشعراء ورجله في الركاب يريد الغزو، فقال له: إني قلت فيك بيتين من الشعر. فقال: في مثل هذا الحال. قال: نعم. فقال هاتهما فأنشده يقول:

يا واحد العرب الذي      ما في الأنعام له نظيرُ  
لو كان مثلك آخره      ما كان في الدنيا فقيرُ

فقال: يا غلام أعطه عشرين ألف دينار فأخذها وانصرف.

وأما حاتم فأخباره كثيرة، وآثاره في الجود شهيرة، ويكنى أبا سفانة، وأبا عدي، وكان يسير في قومه بالمربع، والمربع ربع الغنيمة، وكان ولده عدي يعادي النبي ﷺ فبعث النبي ﷺ علياً إلى طيء، فهرب عدي بأهله وولده ولحق بالشام، وخلف أخته سفانة، فأمرتها خيل رسول الله ﷺ. فلما أتى بها إلى النبي ﷺ قالت: يا محمد هلك الوالد وغاب الرافض، فإن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء العرب. فإن أبي كان سيد قومه يفك العاني<sup>(٢)</sup>، ويقتل الجاني، ويحفظ الجار، ويحمي الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم العظام، ويفشي السلام، ويحمل الكل<sup>(٣)</sup>، ويعين على نوائب الدهر. وما أتاه أحد في حاجة فرده خائباً. أنا بنت حاتم الطائي. فقال لها النبي ﷺ: يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلوا عنها، فإن أباهاء كان يحب مكارم الأخلاق. وقال فيها: ارحموا عزيزاً ذل، وغنياً افتقر، وعالماً ضاع بين جهال. فأطلقها ومنَّ عليها، فاستأذنته في الدعاء له فأذن لها وقال لأصحابه: اسمعوا وعوا. فقالت: أصاب الله بئرك موافقه، ولا جعل لك إلى لثيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا وجعلك سبباً في ردها عليه.

فلما أطلقها ﷺ رجعت إلى قومها فأنت أخاها عدياً، وهو بدومة الجندل فقال له: يا أخي إئت هذا الرجل قبل أن تعلقك حباله، فإني قد رأيت هدياً. ورأياً سيغلب أهل الغلبة، رأيت خصالاً تعجبني، رأيت يحب الفقير، ويفك الأسير، ويرحم الصغير، ويعرف قدر الكبير، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ﷺ. وإني أرى أن تلحق به، فإن يك نبياً فللسابق فضله، وإن يك ملكاً فلن يذل في عز اليمن. فقدم عدي إلى النبي ﷺ فألقى له وسادة محشوة ليفاً، وجلس النبي ﷺ على الأرض فأسلم عدي بن حاتم، وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها وكانت من أجود نساء العرب، وكان أبوها، يعطيها الضريبة من إبله فتبها وتعطيها الناس. فقال لها أبوها: يا بنية أن الكريمين إذا اجتمعا في المال أتلفاه فإما أن أعطي وتمسكي، وإما أن أمسك وتعطي، فإنه لا يبقى على هذا شيء. فقالت له: منك تعلمت مكارم الأخلاق.

قال ابن الأعرابي: كان حاتم الطائي من شعراء الجاهلية وكان جواداً يشبه جوده شعره، ويصدق قوله فعله، وكان حيثما نزل عرف منزله، وكان مظفراً إذا قاتل غلب، وإذا ستل وهب، وإذا سابق سبق، وإذا أسر أطلق، وكان إذا

(١) المفازة: الصحراء المقفرة.

(٢) العاني: الأسير.

(٣) يحمل الكل: الضعيف.

هل رجب الذي كانت تعظمه مضر في الجاهلية نحر كل يوم عشراً من الإبل وأطعم الناس واجتمعوا إليه. وكان قد تزوج ماوية بنت عفير وكانت تلومه على أتلاف المال، فلا يلتفت لقولها، وكان لها ابن عم يقال له مالك. فقال لها يوماً: ما تصنعين بحاتم فوالله لئن وجد مالا ليلتفنه، وإن لم يجد ليتكلفن، ولئن مات ليركن أولاده عالة على قومك. فقالت ماوية: صدقت إنه كذلك، وكانت النساء يطلقن الرجال في الجاهلية، وكان طلاقهن إن يكن في بيوت من شعر، فإن كان باب البيت من قبل المشرق حولته إلى المغرب، وإن كان من قبل المغرب حولته إلى المشرق، وإن كان من قبل اليمن حولته إلى الشام، وإن كان من قبل الشام حولته إلى اليمن فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها طلقته فلم يأتيها. ثم قال لها ابن عمها: طلقي حاتماً وأنا أتزوجك، وأنا خير لك منه وأكثر مالا، وأنا أمسك عليك وعلى ولدك. فلم يزل بها حتى طلقته فأتاها حاتم وقد حولت باب الخباء. فقال حاتم لولده: يا عدي أما ترى ما فعلت أمك؟ فقال: قد رأيت ذلك.

قال: فأخذ ابنه وهبط بطن واد فتزل فيه. فجاءه قوم فتزلوا على باب الخباء كما كانوا يتزلون، كانت عدتهم خمسين فارساً، فضاقت بهم ماوية ذرعاً وقالت لجارتها اذهبي إلى ابن عمي مالك وقولي له إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً، فأرسل إلينا بشيء نقرهم، ولبن نسقيهم، وقالت لها: انظري إلى جبينه وفمه فإن شافهك بالمعروف فأقبلي منه، وإن ضرب بلحيته على زوره، ولطم رأسه، فأقبلي ودعيه. فلما أته وجدته متوسداً وطباً<sup>(١)</sup> من لبن، فأيقظته، وأبلغته، الرسالة. وقالت له: إنما هي الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم، فلطم رأسه بيده، وضرب بلحيته. وقال: أقرئها السلام وقولي لها: هذا الذي أمرتك أن تطلقني حاتماً لأجله، وما عندي لبن يكفي أضياف حاتم. فرجعت الجارية فأخبرتها بما رأت وبما قال لها. فقالت لها: اذهبي إلى حاتم وقولي له إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة، ولم يعلموا مكانك، فأرسل إلينا بناقة نقرهم، ولبن نسقيهم. فأتت الجارية حاتماً فصاحت به فقال: ليك، قريباً دعوت، فأخبرته بما جاءت بسببه. فقال: حباً وكرامة، ثم قام إلى الإبل فأطلق اثنتين من عقالهما وصاح بهما حتى أتيا الخباء، ثم ضرب عراقيهما فطفت ماوية تصيح هذا الذي طلقتك بسببه ترك أولادنا وليس لهم شيء. فقال: ويحك يا ماوية الذي خلقهم، وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم. وكان إذا اشتد البرد، وغلب الشتاء أمر غلمانهم بنار فيوقدونها في بقاع الأرض لينظر إليها مَنْ ضلَّ عن الطريق ليلاً فيقصدوها، ولم يكن حاتم يمسك شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه فإنه كان لا يوجد بهما، ثم جاد بفرسه في سنة مجدبة.

حكى أن ملكان ابن أخي ماوية قال: قلت لها يوماً يا عمّة حدثيني عجائب حاتم، وبعض مكارم أخلاقه، فقالت: يا ابن أخي أعجب ما رأيت منه؛ أصابت الناس سنة<sup>(٢)</sup> أذهبت الخف والظلف وقد أخذني وإياه الجوع وأسهرنا، فأخذت سفانة، وأخذ عدياً وجعلنا نعللها حتى ناما فأقبل عليّ يحدثني ويعلّني بالحديث حتى أنام فرقت به، لما به من الجوع، فأمسكت عن كلامه لينام فقال لي: أنمت؟ فلم أجبه، فسكت ونظر في فناء الخباء، فإذا شيء قد أبل، فرفع رأسه فإذا امرأة فقال: ما هذا؟ فقالت: يا أبا عدي أتيتك من عند صبية يتعاوون كالكلاب، أو كالذئاب جوعاً، فقال لها: أحضري صبيانك فوالله لأشبعنهم فقامت سريعة لأولادها، فرفعت رأسي وقلت: يا حاتم بماذا

(١) الوطب: وعاء جلدي خاص باللبن.

(٢) أصابت الناس سنة: جذب وجفاف.

تشجع أطفالها؟ فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل، فقال: والله لأشبعنك وأشبعن صبيانك وصبيانها، فلما جاءت المرأة نهض قائماً وأخذ المديّة بيده وعمد إلى فرسه فذبحه ثم أجم ناراً، ودفع إلينا شفرة وقال قطعي واشوي، وكلي، وأطعمي صبيانك. فأكلت المرأة وأشبعت صبيانها فأيقظت أولادي، وأكلت وأطعمتهم. فقال: والله إن هذا هو اللؤم، تأكلون وأهل الحي حالهم مثل حالكم، ثم أتى الحي بيتاً بيتاً يقول لهم: انهضوا عليكم بالنار، فاجتمعوا حول الفرس وتقنع حاتم بكسائه وجلس ناحية. فوالله ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها قليل ولا كثير، إلا العظم والحافر، ولا والله ما ذاقها حاتم وإنه لأشدهم جوعاً. وأخباره كثيرة مشهورة، ومن شعره:

أماويٌّ إنَّ المالَ غساذٍ ورائعٌ      ويبقى من المالِ الأحاديثُ والذكرُ  
وقد علمَ الأقوامُ لو أن حاتمًا      أراد شراءَ المالِ كان له وفرُّ

وأغار قوم على طيء فركب حاتم فرسه، وأخذ رمحه ونادى في جيشه، وأهل عشيرته، ولقي القوم فهزمهم وتبعهم. فقال له كبيرهم: يا حاتم هب لي رمحك فرمى به إليه. فقيل لحاتم. عرضت نفسك للهلاك ولو عطف عليك لقتلك. فقال: قد علمت ذلك، ولكن ما جواب من يقول هب لي؟ ولما مات عظم على طيء موته فادعى أخوه أنه يخلفه. فقالت له أمه: هيهات شتان والله ما بين خلفتيكما؛ وضعته فبقي والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت إحدى نديي طفلاً من الجيران، وكنت أنت ترضع ثدياً ويدك على الآخر فأنى لك ذلك.

قال الشاعر:

يعيش الندى ما عاش حاتم طيء      وإن مات قام للسخاء ماتم

وكانت العرب تسمي الكلب، داعي الضمير، ومتمم النعم، ومشيد الذكر، لما يجلب من الأضياف بنباحه، والضمير الغريب، وكانوا إذا اشتد البرد، وهبت الرياح لم تشب النيران، فرقوا الكلاب حوالي الحي وربطوها إلى العتمة لتستوحش فتنبج، فتهدى الضلال، وتأتي الأضياف على نباحها.

والحكايات في ذكر الأجواد، والكرماء، والأسخياء، وأهل المعروف وما كانوا من السخاء، والكرم، أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر. ففي مثل هذه المناقب فليتأفسر المتأفسون، ولمثلها فليعمل العاملون، فإن فيها عز الدنيا، وشرف الآخرة، وحسن الصيت، وخلود جميل الذكر، فإننا لم نجد شيئاً يبقى على ممر الدهر إلا الذكر حسناً كان، أو قبيحاً. وقد قال الشاعر:

ولا شيئاً يدوم فكن حديثاً      جميل الذكر، فالدنيا حديث

فانتبهز فرصة العمر، ومساعدة الدنيا، ونفوذ الأمر، وقدم لنفسك كما قدموا، تذكر بالصالحات كما ذكروا، وأدخِر لنفسك في القيامة كما أدخروا، واعلم أن المأكول للبدن، والموهوب للمعاد، والمتروك للعدو فاختر أي الثلاث شئت، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.